نظريةُ التَّحدي والاستجابة في فتوى الدَّفاع المقدس «دراسةٌ فكرية مقاربةٌ»

The Theory of Challenge and Response in the Fatwa of Sacred Defense: "A Comparative Intellectual Study",

البَاحث: الأستاذُ المُساعدُ الدُّكتورُ أحمَد حسن قاسم.
كليَّة التَّربيَّة للبنَّات - جَامِعَةُ الشَّطرة.

Researcher's Name: Assistant Professor Dr.Ahmed Hassan Qasim.
Affiliation: University of Shatra / College of Education for Women
ahmadhassan1981@shu.edu.iq

الملخص

تطـور التدويـن التاريخـي مـن مجـرد التوثيـق الوصفـي الـذي يسـجل الأحـداث والوقائـع بأسـلوب إخبـاري، إلى المنهـج التحليـلي النقـدي الـذي يسـعى للكشـف عـن الأسـباب والمحـركات الكامنـة وراء تلـك الأحـداث. هـذا التحـول المعـرفي أدى إلى ظهـور مـا يُعـرف بـ «فلسـفة التاريـخ»؛ وهـي القـراءة العلميـة التـي لا تكتفـي بـسرد المـاضي، بـل تـدرس القوانـين العامـة التـي توجـه مسـار البشريـة. ويُعـد الفيلسـوف الفرنـسي «فولتـير» أول مـن اجـترح هـذا المصطلـح عـام ١٧٥٦م، لِيؤسـس بذلـك مرحلـة جديـدة تتعامـل مـع التاريـخ بوصفـه مـادة للبحـث العقـلي والاسـتنتاج، لا مجـرد سـجل للذكريـات.

الكلـمات المفتاحيـة: فتـوى الجهـاد، تويبنـي، السـيد السيسـيتاني، التضحيـة، الارهـاب.

Summary:

Historical recording has evolved from descriptive documentation—which merely catalogs events and ancestral legacies—into an analytical and critical methodology that seeks to uncover the underlying causes and drivers of those

events.

This cognitive shift gave rise to the concept of the "Philosophy of History," an intellectual approach that moves beyond narration to study the general laws governing human progress. The French philosopher Voltaire was the first to introduce this term in 1756, establishing a framework where history is treated as a subject for rational inquiry and deduction rather than a simple record of the past.

Keywords: Fatwa of Jihad, Toynbee, Grand Ayatollah Al-Sistani, Sacrifice, Terrorism.

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ. وبعد.

أهتم الأنسان منذ مراحل وعيه المعرفي في تدوين ما حصلَ وسبقَ من أحداث، ووثق كل ما جرى على أسلافه من الآباء والأجداد، بوصفه تاريخاً يحكي مجداً أو يقص واقعة أو يروي انتكاسة وغيرها، وهذا التَّدوين لا يتعدى كونه سجلاً من الأحداث لجهد الأنسان وأعماله التِّي قام بها في الماضي. ثم تطور الوَّعي المعرفي عند الانسان، فأنتقل من التسجيل إلى السَّؤال. فأخذ يسأل عن تلك الأحداث وعن سبب وقوعها. فتوَّلدت فكرة أنّ المؤرخ يدرس التّاريخ على أسس تحليلية نقدية يلتزم فيها بنوع من التَّفكير التَّاريخي ويبيِّن أهم العوامل التِّي تحرك التاريخ. وهذا النَّوع من التفكير المعرفي أنتج مصطلحاً مبتكراً في العقل الإنساني هو مصطلح «**فلسفة التاريخ**». وأول من طرحه في ساحة المعرفة هو الفيلسوف الفرنسي «ماري ارويه دي فولتير» (ت: ١٧٧٨م) في بحث نشره عام ١٧٥٦م.

ومن ثم علتْ أصوات الفلاسفة من أمثال: «إمانول كنت» و»جوهان هردر» و»جورج فلهلم هيغل» و»فيكو» و»شبنغلر» في إبداع هذا المصطلح الجديد وبلورته وإخراجه كعلم مستقل يختلف بماهيتهِ وموضوعهِ وغايتهِ عن تدوين كتابة التاريخ بأسلوبه القديم. إلى أنْ وصل الأمر إلى الفيلسوف البريطاني «**آرنولد توينبي**» (ت: ١٩٧٥م) صاحب نظرية «**التَّحدي والاستجابة**» التِّي فسر بها الأحداث التاريخية وفق الفلسفة التأملية إذ تعد هذه النَّظرية في فلسفة التَّاريخ أشهر نظرية في القرن العشرين على مستوى العالم كله.

وعلى ما تقدم إذا نظرنا للتَّاريخ بوصفه سجلاً لأحداث الماضي مما لا شك فيه ان «فتوى الدَّفاع» التِّي أصدرتها المرجعية الدِّينية العليا في النجف الاشرف حدثتْ في يوم معين تلقتها الجماهير، وتفاعلتْ معها بالالتحاق لمعسكرات الحرب والذِّي قتل منهم فهو شهيدٌ ومن بقي فهو مجاهدٌ في سبيلِ الله. وعلى وفق هذه النَّظرة ندونُ أمجادنا في سجل الكتب. ولكن أذا

نظرنا من حيث الظروف قبيُل الفتوى» وما رافقتها من أحداثٍ استثنائيةٍ وكيفية مواجهة تلك الأحداث ومدى استجابة المتلقي وبيان سيكولوجيته واستعداده النَّفسي وفاعلية الفتوى في محيطها وخارجه، ومخرجات تلك الاحداث، حتماً ستكون النَّظرة مختلفة تماماً عن النظرة الأولى. ومن هنا سأدرس «**فتوى الدَّفاع**» وفق هذه نظرية «**التَّحدي والاستجابة**» بوصفها أهم نظرية طرحتْ في تفسير الحدث التَّاريخي بأسلوب فلسفي مقارباتي. لنستلهم منها الوَّاقع ونستشرف فيها المستقبل.

- **أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في ثلاثة أمور هي:**

١- بيان الظروف التِّي سبقت ورافقت «فتوى الدَّفاع» وكيفية استطاعت المرجعية التغلب على تلك الظروف.

٢- إظهار الموقف الرَّيادي الذِّي تتمتع به المرجعية الدِّينية والمحورية الحقيقة التِّي تملكه من تأثيرٍ في العراق والعالم الاسلامي.

٣- إبراز القيمة الحقيقة لفتوى الدَّفاع وإنَّها غير استراتيجية عالمية وكيف أفشلت مشروع لتغير المنطقة برمتها.

- **هدف البحث: يستهدف البحث أمرين هما:**

١- تقديم دراسة أكاديمية مختصة بعيدة عن السَّرد التَّاريخي، والوَّقوف على أهم العوامل التِّي من شانها أنْ تكون صالحةً لتعاطي مع الأحداث المستقبلية.

٢- المقاربة بين الأحداث التَّاريخية وبين الرَّؤية الفلسفية الحديثة التِّي مما لا شك تعطينها مخرجات جديدة تسهم تصدير ما عندنا إلى الآخر.

- **مشكلة البحث: أحاول من خلال البحث الإجابة عن الأسئلة التَّالية:**

١- ما الظروف التِّي سبقت فتوى الدَّفاع المقدس؟.

٢- متى تصدر الفتوى بالدَّفاع من المرجعية العليا؟.

٣- لماذا نسميها بفتوى الدَّفاع وليس فتوى الجهاد؟.

٤- ما هو مفهوم التَّحدي في فتوى الدَّفاع المقدس؟.

٥- أين تكمن الاستجابة في فتوى الدَّفاع المقدس؟.

٦- كيف نقرأ سيكولوجية الجماهير في تلقي الفتوى؟.

- **هيكلية البحث: يضم مقدمة وتمهيداً ومبحثين، وخلاصة، وقائمة بالمصادر.**

- **التَّمهيد:** تناولتُ فيها المفاهيم التأسيسية للبحث.

- **المبحث الأول:** تطرقتُ فيه إلى التَّحدي في فتوى الدَّفاع المقدس.

- **المبحث الثَّاني:** تعرضتُ فيه إلى الاستجابة في فتوى الدَّفاع المقدس.

- **الخلاصة:** أوجزت أهم النَّتائج التِّي توصلت إليها من كتابة البحث.

أسال الله تعالى أنْ يمَّدَّ لي العون في إتمام بحثي، وإكماله بأحسن صورة.. فإنه ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة، والحمد لله اولا واخراً.

مفاهيم تأسيسية

بَادِئَ ذِي بَدْءٍ وقبلَ خوض غمارَ الدَّراسة لابدَّ من بيِّان المفاهيم التَّأسيِّسية للبحث، فبيانها يشكلُ القواعدَ الاساسية في فهم مدلولاته، كمَّا أنْه يعدُ مقاربة تفكيكية لرموز عنوانِ البحث، ومن هنا يُلزمُ الباحث أنْ يقدمَ ايضاحاً يبيَّن فيه، ويفكك المقاصد التِّي يروم إليها من دَراسته. والمفاهيم التي ينبغي ذكرها ثلاثة هي:

أولا: مؤسس نظرية «التَّحدي والاستجابة».

«ارنولد جوزيف توينبي» هو صاحب نظرية «التَّحدي والاستجابة»، التي تعتبر من أهم النظريات المعاصرة في فلسفة التاريخ، فهو مؤرخ معاصر، عايش وشاهد مشكلاتنا العالمية المعاصرة، الأمر الذي يجعل من آرائه أكثر حيوية وأهمية من فلاسفة أو مؤرخين عاشوا في أزمنة خلت، مؤرخا وفيلسوفا عرف بسعة اطلاعه وغزارة معارفه، فلقد عكف على دارسة حضارات العالم بأسره، قديمها وحديثها، طوال نصف قرن تقريباً[1]. وذلك يجدر بنا ان استعرض موجز حياته كونه صاحب هذه النظرية التي هي محل دراستنا.

ولد أرنولد جوزيف توينبي في مدينة لندن في ١٤ أبريل عام ١٨٨٩م، من أسرة متوسطة، اذ كان والده يعمل موظفاً بشركة للشَّاي، وكانت والدته حاصلة على درجة البكالوريوس في التاريخ، وقد أشار توينبي الى فضل والدته عليه في تعلم التاريخ، إذ كانت صحبته لها صحبة فكرية نادرة[2].

تلقى ارنولد توينبي تعليمه في وينتشستر بكلية باليول بجامعة اكسفورد، وقد عمل عدة سنوات مدرسا بجامعة اسكفورد- واشتغل خلال الحرب العالميتين الاولى والثانية بوزارة الخارجية البريطانية، واختير عضوا في الوفد البريطاني بمؤتمر الصلح في باريس عامي ١٩١٩ و١٩٤٦م [3].

وشغل توينبي منصب استاذ مادتي اللغة البيزنطية واليونانية الحديثة والآداب اليونانية القديمة، والتاريخ اليوناني القديم بجامعة لندن خلال سنوات ١٩١٩-١٩٢٤من ثم امضى ثلاثين سنة من عام ١٩٢٥ حتى تقاعده ١٩٥٥م استاذا باحثا للتاريخ الدولي ومديرا للدراسات في المعهد الملكي للدراسات الدولية في لندن[4].

صدرت له أعمال فكرية كثيرة، أهمها موسوعته الشهيرة «دارسة للتا ريخ» والتي تتألف من اثني عشر مجلداً أنفق في تأليفها واحداً وأربعين عاماً (١٩٢١-١٩٦١م) وقد أختصر «سومرفيل» هذه الموسوعة الضخمة في أربعة أجزاء، وقد ترجم هذه الأجزاء الأربعة المختصرة الى العربية الأستاذ «محمد فؤاد شبل»، واذكر أهم مؤلفات هي: الفكر التاريخي

اليوناني ١٩٢٤م. والحضارة في محنة ١٩٥١م. والحرب والحضارة ١٩٥٠. والعالم والغرب ١٩٥٣ وغيرها الكثير من المؤلفات الأخرى[٥]. توفي في ٢٢ أكتوبر من عام ١٩٧٥ م وبه انتهت أيام هذا المؤرخ والمفكر الكبير على الأرض. مخلفاً واراءه دارسات تاريخية هامة، تعتبر في نظر الكثير من الباحثين والدارسين من أهم وأشمل الدارسات في موضوع الحضارة وفلسفة التاريخ.

ثانيا: نظرية التَّحدي والاستجابة.

تعد نظرية التَّحدي والاستجابة التي طرحها الفيلسوف ارنولد توينبي اشهر نظرية في فلسفة التاريخ التأملية في القرن العشرين على مستوى العالم كله، مما حدا ببعض الكتَّاب ان يصنفها كما لو كانت بمكتشفات نيكولاس كوبرنيكوس صاحب نظرية «مركزية الشمس» وغاليليو غاليلي صاحب نظرية «فيزيائية الحركة»، واسحاق نيوتن صاحب نظرية «القوة المركزية». وزاد البعض الاخر على ان منهجه في دراسة التاريخ يساوي نظرية «الكم» في علم الميكانيك[٦]. وهذا لا يعني بان نظرية «التَّحدي والاستجابة» خالية تماماً من الطعن وسالمة من الخدش؛ كلا، فقد تعرضت للنقد والاعتراض. ولسنا بصدد هذه الاشكالات بقدر ما نبين ماهيتها.

تنطلق نظرية توينبي من العلاقة العضوية التي كان يرى انها تربط التاريخ بالحضارة، والتي يمكن من خلالها دراسة التاريخ العام وتفسيره واستخلاص نظرية بشأنه. فالتاريخ لا يدرس ويفهم الا من خلال وحداته الاصغر المتمثلة بالحضارات، او المجتمعات كما يدعوها، اذ يرى توينبي او وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم ليست هي الدولة القومية، ولا هي دراسة بعينها، او عصر بذاته، ولا هي الجنس البشري في مجموعه[٧].

والوحدة عند توينبي هي: «مجموعة خاصة من البشرية دعوناها نحن المجتمع»[٨]. ويفسر المجتمع نظام للعلاقات بين الافراد ولا يتأتى للكائنات البشرية ان تحقق وجودها الحقيقي الا بتفاعلها مع رفاقها، وهنا يكون المجتمع ميدان عمل عدد من الكائنات البشرية على ان الافراد هم «مصدر الفعل» ذلك لان جميع اسباب الارتقاء تبعث عن افراد مبدعين او اقليات صغيرة من الافراد ويتكون عملهم من جزئيين: الاول، تحقيق الهامهم او كشفهم مهما يكون امره، والثاني، هداية المجتمع الذي ينتمون اليه الى سبيل الحياة الجديدة[٩].

اما سبل ارتقاء المجتمعات كما يراه هو عملية يطلق عليها كلمة «التسامي» التي تعني لديه التغلب على الحواجز المادية وتعمل عملية التسامي على اطلاق طاقات المجتمع من عقالها لتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس اكثر من خارجها، أي انا روحانية الطابع اعظم منها ماديته[١٠].

وفي ضوء دراسة توينبي للمجتمعات البشرية، فانه قد خلص الى ان العامل الرئيس في عملية نشوء الحضارة وظهورها راجع الى حد كبير الى استجابة المجتمع لتحدٍ صادر إما عن البيئة المادية او عن الوسط البشري او عن كليهما معا، ومن جاءت تسمية نظريته بالتَّحدي والاستجابة. فالمجتمع خلال تطوره يصادف صعابا تهدد وجوده وكيانه فيواجه هذا التَّحدي ببذل جهود مضاعفة استجابة لحب البقاء، فاذا ما واجه هذا التَّحدي بنجاح وتغلب عليه تمكن من زيادة قوته الداخلية وقدرته الخلاقة بحيث يؤدي ذلك الى نشوء ما نطلق عليه اسم «الحضارة» اما اذا لم يتمكن المجتمع من مواجهة هذا التَّحدي بنجاح فانه يفقد قيمته وهيبته ورفاهه المادي وربما آل به الامر الى الفناء والزوال[11]. وخلاصة المطاف بان الزمام بيد المجتمع الذي هو من يقرر مصيره في البقاء والفناء وفق الاستجابة التي تمخضها تلك التَّحديات.

ثالثا: فتوى الدَّفاع المقدس.

فتوى الدَّفاع الكفائي صدرت من المرجعية الدينية العليا المتمثلة بسماحة اية الله العظمى السيد الحسيني السيستاني «دام ظله الوارف» بتاريخ ١٤ شعبان ١٤٣٥هـ، الموافق ١٣ حزيران ٢٠١٤م. في يوم الجمعة من الصحن الحسيني ألقاها سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة في الخطبة الثانية من صلاة الجمعة المباركة. وهنا تجد الاشارة الى التفريق بين فتوى الدفاع وبين الجهاد فهما محل وجدل وخلاف عند الفقهاء، وابين اشهر القولين: قال المحقق الحلي (رحمه الله): «وفرضه -الجهاد- على الكفاية بشرط: وجود الامام، او من نصبَّه للجهاد. ولا يتعين، الا ان يعينه الامام، لاقتضاء المصلحة، او لقصور القائمين على الدفع الا بالاجتماع، او يعينه على نفسه بنذر وشبهه. وقد تجب المحاربة على وجه الدفع، كأن يكون بين اهل الحرب، ويغشاهم عدو يخشى منه على نفسه، فساعدهم دفعاً على نفسه، ولا يكون جهاداً»[12].

فالمعيار الفاصل بين المفهومين هو وجود الامام او نائبه المنصب منه. فالجهاد شرطه وجود الإمام المعصوم او النائب الخاص. اما الدفاع فهو غير مشروط بوجود الامام ونائبه. وعليه كل ما يحدث في عصر الغيبة الكبرى هو دفاعا وليس جهاداً، لذا «فان المتأخرين خلال عدة مئات من السنين حذفوا كتاب الجهاد من رسائلهم العلمية لعدم توفر شروطه في زمن الغيبة والهدنة، وليس بين الفقهاء من يأمر بالجهاد او يراه واجبا، والمسألة اجماعية او تكاد»[13]. سأذكر نصها كما وردت في موقع سماحة المرجعية العليا. وأخضعه للقراءة التفكيكية والتأملية وصولاً لنتائج منسجمة مرضية.

«ان العراق وشعبه يواجه تحدياً كبيراً

وخطراً عظيماً وإن الإرهابيين لا يهدفون إلى السيطرة على بعض المحافظات كنينوى وصلاح الدين فقط بل صرحوا بأنهم يستهدفون جميع المحافظات ولا سيما بغداد وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف، فهم يستهدفون كل العراقيين وفي جميع مناطقهم، ومن هنا فإن مسؤولية التصدي لهم ومقاتلتهم هي مسؤولية الجميع ولا يختص بطائفةٍ دون أخرى أو بطرفٍ دون آخر. إن التَّحدي وإن كان كبيراً إلاّ أن الشعب العراقي الذي عرف عنه الشجاعة والإقدام وتحمّل المسؤولية الوطنية والشرعية في الظروف الصعبة أكبر من هذه التَّحديات والمخاطر .

وأضاف الكربلائي: أنه لا يجوز للمواطنين الذين عهدنا منهم الصبر والشجاعة والثبات في مثل هذه الظروف أن يدبَ الخوفُ والاحباطُ في نفسِ أيٍّ واحدٍ منهم، بل لا بد أن يكون ذلك حافزاً لنا للمزيد من العطاء في سبيل حفظ بلدنا ومقدساتنا. ودعا الكربلائي: القيادات السياسية الى ترك الاختلاف والتناحر ولاسيما خلال هذه الفترة العصيبة وحثّهم على توحيد مواقفهم ودعمهم واسنادهم للقوات المسلحة ليكون ذلك قوة إضافية لأبناء الجيش العراقي في الصمود والثبات، موضحا انهم ـ أي القيادات السياسية ـ أمام مسؤولية تاريخية ووطنية وشرعية كبيرة.

واضاف الكربلائي: ان دفاع أبنائنا في القوات المسلحة وسائر الأجهزة الامنية هو دفاع مقدس، ويتأكد ذلك حينما يتضح أن منهج هؤلاء الإرهابيين المعتدين هو منهج ظلامي بعيد عن روح الاسلام، يرفض التعايش مع الآخر بسلام ويعتمد العنف وسفك الدماء وإثارة الاحتراب الطائفي وسيلة لبسط نفوذه وهيمنته على مختلف المناطق في العراق والدول الأخرى. وخاطب الكربلائي ابناء القوات المسلحة قائلاً: اجعلوا قصدكم ونيتكم ودافعكم هو الدَّفاع عن حرمات العراق ووحدته وحفظ الأمن للمواطنين وصيانة المقدسات من الهتك ودفع الشر عن هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح.

ثم قال الكربلائي : وفي الوقت الذي تؤكد فيه المرجعية الدينية العليا دعمها واسنادها لكم فأنها تحثكم على التحلي بالشجاعة والبسالة والثبات والصبر وتؤكد على إن من يضحي بنفسه منكم في سبيل الدَّفاع عن بلده وأهله وأعراضهم فإنه يكون شهيداً إن شاء الله تعالى. المطلوب أن يحث الأبُّ ابنه والأمُّ ابنها والزوجة زوجها على الصمود والثبات دفاعاً عن حرمات هذا البلد ومواطنيه. إن طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدَّفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه وهذا الدَّفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي، بمعنى أنه إذا تصدى له من بهم الكفاية بحيث يتحقق الغرض وهو حفظ

العراق وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقين. ومن هنا فان المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية.

واختتم كلامه بقوله: إنَّ الكثير من الضباط والجنود قد أبلوا بلاءً حسناً في الدَّفاع والصمود وتقديم التضحيات فالمطلوب من الجهات المعنية تكريم هؤلاء تكريماً خاصاً لينالوا استحقاقهم من الثناء والشكر وليكون حافزاً لهم ولغيرهم على أداء الواجب الوطني الملقى على عاتقهم.

المبحث الأول: التَّحدي في فتوى الدَّفاع المقدس.

تشكل التَّحديات التي عاشها العراقيون قبيل الفتوى المباركة عاملاً اساسياً في اصدار الفتوى، بل لو لا تلك التَّحديات لما كانت الفتوى اصلاً، وعليه لا بد من قراءة تلك الظروف قراءة تفكيكية تأملية تنسجم مع الاحداث التي تعد اخطر منعطف مر به العراق في تاريخه الحديث والمعاصر. كما لا بد من اظهار البعد الفلسفي في تفسير ذلك الحدث التاريخي لإيجاد مقاربة بين تحديات الفتوى المباركة والرؤية التفسيرية في مجريات الاحداث التاريخية التي انطلق منها الفيلسوف توينبي في نظريته التَّحدي والاستجابة. وفي تقديري تكمن التَّحديات في خمسة أمور هي:

أولاً: التَّحدي الزَّمني (Time challenge).

لا يختلف عاقلان على اهمية الزمن بالنسبة للإنسان، فهو عاملا جوهريا في وجوده المادي والميتافيزيقي على حد سواء، فالإنسان دون الزمن لا يستطيع ان يكون انسانا كما ينبغي له بل لا يتحقق الهدف الذي خُلقه من أجله، وعليه أولى الله سبحانه وتعالى اهتماما بالغا لمسالة الزمن في القرآن الكريم وأضفى عليه قداسة عندما كرر القسم بكل جزيئاته وحيثياته، قال تعالى: {**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**} [العصر : ١ - ٣].

واجه العراقيون تحديا كبيرا وخطيرا في سقوط الموصل بيد التنظيم الإرهابي «داعش» وسيطرته عليها، بل كان الوقت القياسي الذي اعتمد عليه هؤلاء الإرهابيون هو نقطة القوة الذي ساعدهم في تمددهم الى بقية المحافظات وسقطوها. فالموصل هي ثاني اكبر محافظات العراق بعد بغداد وفيها من العُدد العسكرية والمقاتلين ما لا يحصى ذكره؛ فما اسدل الليل سدوله وارخى جفونه وفي اقل من ست ساعات لتصبح مدينة بحجم الموصل اسيرة خاضعة تماما، يعلن التنظيم في صباحها الباكر عن دولتهم ومقر خلافتهم. وفي تقديري هذا هو اهم تحد انطلقت منه فتوى الدَّفاع المقدس، فكان خطرا

كبيرا يستدعي يحتاج الى استجابة تكون بقدر سرعة التَّحدي وبحجم الخطر المحدق بالبلد لأنه سيتكرر في بقية المحافظات وبنفس الطريقة، لذا شخَّص الشيخ الكربلائي في خطبته هذا المضمون قائلا: «ان العراق وشعبه يواجه تحدياً كبيراً وخطراً عظيماً وإن الإرهابيين لا يهدفون إلى السيطرة على بعض المحافظات كنينوى وصلاح الدين فقط بل صرحوا بأنهم يستهدفون جميع المحافظات ولا سيما بغداد وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف..»[١٤]. ويمكن ان احلل العامل الزمني وما له من انعكاسات على العراقيين مما جعله تحديا كبيراً وخطراً هو:

١- الخيانة (Treason).

ساعدت الخيانة على طي الزمن في سيطرة الإرهابيون على ثاني مدينة في العراق بوقت قياسي جدا، وهذه انعكست بدورها على كعامل خطيرٍ للتحدي على المواطنين انفسهم بان البلد مباع وان كبار الضباط من الشرطة والجيش تخلوا عن شرف مسؤوليتهم وتخاذلوا عن المواجهة اما جبنا او تواطئا، وعليه فقد الامل بمن يعول عليه في الدَّفاع، كما فقد الثقة المتبادلة بين القوات الامنية وشعبها. وهذا ما حدث فعلا في جريمة سبايكر التي راح ضحيتها اكثر من ٢٠٠٠ شاب نتجت الخيانة والتخاذل مما ادى الى وقوع ابادة الشباب العزل.

٢- الهزيمة النفسية (psychological de-feat).

انتج العامل الزمني ازمة نفسية حادة لدى كثير من المواطنين بل حتى عند المقاتلين من الجيش والشرطة هي فقدان الارادة في المواجهة واول ما يفكر به هو الانهزام من المعركة، بتصورات ناتجة من العامل الزمني ادى الى خلق صورة حقيقية تعامل معها الكثير من الناس هي: ان مجرد اسم «داعش» يولد قلقاً وخوفاً في اذهان الكثير لما يتمتع به هذا التنظيم من امكانات يستطيع من خلالها اسقاط محافظات بأكملها بساعات قليلة جدا وبالتالي هذه التصورات انتجت قناعة حقيقية لا يمكن مواجهته بوصفه «قوة لا تقهر»!.

وهنا اذكر شيئاً عندما كنت طالباً في مرحلة الدكتوراه في الجامعة العراقية في بغداد سنة ٢٠١٥م. كان معي طالباً من محافظة الانبار مهجراً في بغداد قال لي: بان كثير من مدننا في محافظة الانبار سقطت دون أي مواجهة حيث تمت السيطرة عليها من داعش عبر المكبرات الصوتية، كانوا ينادون «اخرج من ارض محمد» فالجيش والشرطة غادروا مقراتهم بمجرد سماع اصواتهم رغم اعدادهم الكبيرة، دون مواجهة او قتال تاركين اسلحتهم وعددهم العسكرية، انتهى. فالهزيمة النفسية هي من شكلت عاملا كبيرا في فقدان الارادة على المواجهة

مـما ادت الى تحـدٍ خطـرٍ منـي بـه الشـعب آنـذاك.

ثانيـا: التَّحـدي الدِّينـي (Religious chal-lenge).

مـن الحقـوق التـي منحهـا اللـه تعـالى للإنسـان حـق الحريـة في اختيـار دينـه ومعتقـده دون ان يجـبره او يكـره. وبهـذا الحـق يكـون الانسـان مسـؤولا عـما يتخـذه مـن معتقـد، قـال تعـالى: {**لَا إِكْـرَاهَ فِي الدِّيـنِ قَـدْ تَبَـيَّنَ الرُّشْـدُ مِـنَ الْغَـيِّ فَمَـنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُـوتِ وَيُؤْمِـنْ بِاللَّـهِ فَقَـدِ اسْتَمْسَـكَ بِالْعُـرْوَةِ الْوُثْقَـى لَا انْفِصَـامَ لَهَـا وَاللَّـهُ سَـمِيعٌ عَلِيـمٌ**} [البقـرة : ٢٥٦]. فرغـم ان اللـه تعـالى هـو صاحـب الولايـة الحقيقيـة المطلقـة عـلى الانسـان وهـو خالقـه بيـد انـه لم يجـبره، نعـم بـين لـه معـالم الحـق واوضـح لـه طريـق الهدايـة وتـرك الاختيـار للإنسـان، قـال تعـالى: {**وَقُـلِ الْحَـقُّ مِـنْ رَبِّكُـمْ فَمَـنْ شَـاءَ فَلْيُؤْمِـنْ وَمَـنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُـرْ**} [الكهـف : ٢٩]. فمـن بـاب الاولى ان الإنسـان لا حـق لـه عـلى الاخـر بذلـك، مـا فيهـم رسـول اللـه (صـلى اللـه عليـه والـه وسـلم)، قـال تعـالى: {**وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّـكَ لَآمَـنَ مَـنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُـمْ جَمِيعًـا أَفَأَنْـتَ تُكْـرِهُ النَّـاسَ حَتَّـى يَكُونُـوا مُؤْمِنِـينَ**} [يونـس : ٩٩].

ولكـن التَّنظيـم الإرهـابي قـد منـح لنفسـه هـذا الحـق ونصـب نفسـه وليـا عـلى النـاس فأخـذ يفـرض أيدولوجيتـه الدينيـة بالذبـح والنحـر، ويسـتأصل كل مـن خالفـه فيهـا. والأنـكى مـن هـذا بانه يحمـل القـرآن الكريم ويتحـدث بـه ويكـبر اللـه ويهللـه وهـو يذبح بالأخـر، وليـس للأخـر مـن ذنـبٍ سـوى انه لا يديـن بديـن الارهـاب ولا يعتقـد بعقيدتـه. فهـذه العقيـدة الدينيـة التـي انطلـق منهـا التنظيـم الإرهـابي شـكلت خطـراً كبـيراً وتحديـاً واضحـاً عـلى جميـع العراقيـين. وسـأذكر نموذجـين مـن أبنـاء العـراق ممـن تعرضـا لهـذا التَّحـدي الكبـير هـما:

١-الطائفـة الايزيديـة (Yezidi communi-ty).

تعرضـت الطائفـة الايزيديـة لأشـد انـواع الجرائـم الانسـانية عـلى يـد التنظيـم الإرهابي «داعـش» مـن ذبـح واعـدام واسـترقاق واعتـداء عـلى شرف نسـائهم، حتـى قتـل مـا يقـارب خمسـة الالـف ايزيـدي، إلى جانـب اسـترقاق سـبعة آلاف امـرأة وفتـاة وبيعهـم في مدينـة الموصـل والرِّقـة السـورية، وتشريـد معظـم أفـراد الأقليـة التـي يبلـغ قوامهـا ٥٥٠ ألـف نسـمة مـن موطـن أجدادهـم في شـمال العـراق. والإيزيديـون هـم أقليـة دينيـة قديمـة تسـكن في محافظـة نينـوى في مدينـة سـنجار وضواحيهـا اعتبرهـم التنظيـم الإرهـابي «داعـش» عبـدة شـيطان، بسـبب عقيدتهـم التـي تجمـع بـين الزرادشـتية والمسـيحية والمانويـة واليهوديـة والمسـلمة[١٥]. فـكل مـا تعرضـوا لـه مـن جرائهـم وابـادة هـي بـدواعٍ دينيـة متطرفـة لا تفهـم مـن الديـن الا اللحـى الطويلـة، وتكفـير الاخـر، واسـتئصاله.

٢-الشِّيعة (Shia).

لستُ مجانبا للحقيقة عندما اقول بان الغاية الاساسية من تأسيس وتكوينه هو من أجل قتل الشيعة ومحاربة مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وهذه الحقيقة ليستْ وليدة سقوط مدينة الموصل، بل عام ٢٠٠٣م، عندما تصدى الشيعة لمسألة الحكم عقيب سقوط حزب البعث الإجرامي. بدأت من القاعدة والتوحيد والجهاد وجيش انصار السنة وانصار الاسلام وكتائب ثورة العشرين وغيرها. مارسوا عملياتهم الإرهابية ضد الشيعة قرابة عشرة سنوات فلا يكاد يوم يمر على العراقيين الا فيه تفجير او اغتيال او خطف حتى اصبحت كل ايام الاسبوع في العراق تسمى بالدامية لكثرة الانتحاريين والسيارات المفخخة التي ازهقت الانفس البريئة، وكل ما حصل هو في المدن الشيعية في الاسواق الشعبية، والجمعات السكنية، ومواسم الزيارات المقدسة. ولم تخترف الشيعة ذنباً حتى تعاقب بهذه البشاعة الإجرامية سوى العقيدة الدينية التي لا يرتضيها الارهاب. جاء تنظيم «داعش» ليكمل حيث انتهى منه تلك التنظيمات، فبعد سقوط مدينة الموصل عمد «داعش» الى المدن الشيعية الموجودة في محافظة نينوى «قضاء تلعفر» وهو من اكبر الاقضية في العراق. تسكنه الغالبية التركمانية من الشيعية. تعرضت الشيعة في قضاء تلعفر فقُتل الأبرياء وسُبيت النساء وتمّ اغتصابهن، ولم يُسلم من جرائم التنظيم حتى الأطفال ودور العبادة والمواقع الاثرية والثروات الطبيعية».

كما قام تنظيم «داعش» بإعدام العديد من الأشخاص الذين كانوا غير متوافقين مع فكره دينيا. وقتل من هم فوق سن الثانية عشر، ورميهن في حفرة «علو عنتر» التي يبلغ قطرها ٥٠ مترا وعمقها ١٠٠ متر شمال تلعفر. وتشير التقديرات إلى وجود ١٠٠٠ جثة حاليا في حفرة «علو عنتر».[١٦] اما الاختطاف النساء تشير المصادر الى ان: «لا تزال أكثر من ألف فتاة تركمانية عراقية مختطفة من قبل عناصر تنظيم «داعش» عقب احتلال التنظيم منطقة تلعفر في نينوى، ذات الأغلبية التركمانية»[١٧].

ثالثاً: التَّحدي السِّياسي (political challenge).

تعرف السياسية بانها: «فن الحُكْم برعاية شؤون الناس العامة والخاصة في الدولة على الصعيد الداخلي، والصعيد الخارجي بتنظيم علاقات الدَّولة ورعاياها بالدَّول الأخرى»[١٨]. فالنظام السياسي هو المسؤول الاول والراعي عن تدبير شؤون مواطنيه داخل البلد وخارجه، ويكون ذلك عبر القانون مما يؤدي الى تقوي العلاقة بين المواطن والدولة بوصفها تمثل النظام السياسي، واذا فقدت هذه العلاقة او ضعفت سيواجه المواطن تحديا في المخاطر التي يتعرض اليها نتيجة تهالك تلك

العلاقة المتبادلة. والعراقيون قد واجهوا تحديا سياسيا قبيل فتوى الدَّفاع المقدس، وهو فقدان الثقة في النظام السياسي القائم آنذاك، فالشعب لا يثق بالسياسيين ولا يمكن ان يطمئن لقولهم، والذي يتحكم بالقوات الامنية هم هذا النظام، بالتالي شكلت هذه الازمة تحديا انعكست على الثقة بالقوات الامنية. وهذه الازمة راجعة الى امرين هما:

١-التَّناحر (rivalry).

الخلاف الحاد بين الاحزاب السياسية والتيارات اللاهثة على الحكم والمكاسب النفعية هي من خلقت الفوضى في الدولة وانتجت مناخا ملائما لانتعاش الخلايا الإرهابية، وافقدت الامن في كثير من المدن في العراق. من تلك الخلافات هو وجود فجوة وخلافات كبيرة بين الحكومة المحلية وقيادة عمليات نينوى وبين الحكومة المحلية والحكومة الاتحادية والقيادات الأمنية والحكومية، فالعلاقات كانت متوترة جدًا. كما لعب محافظ نينوى السابق «أثيل النجيفي» على ورقتين مع جماهير نينوى ففي المرة الأولى استعمل الورقة القومية، ولاسيما مع الكورد وهم ثاني أكبر قومية في محافظة نينوى من خلال رفع شعار إخراج قوات البيشمركة في المناطق المتنازعة عليها، والمرة الثانية استعمل الورقة المذهبية الطائفية فتمرّد على الحكومة الاتحادية[١٩].

ولم ينحسر الخلاف بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية بل كان هناك مجموعة خلافات بين رئيس الحكومة «نوري المالكي» وبين رئيس مجلس النواب «اسامة النجيفي» وكذلك بين القوى الشيعية والقوى السنية والقوى الشيعية نفسها، وكذلك القوى السنية فيما بينها. لذلك دعا سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي في خطبة الدَّفاع المقدس القوى السياسية قائلاً:

«القيادات السياسية الى ترك الاختلاف والتناحر ولاسيما خلال هذه الفترة العصيبة وحثّهم على توحيد مواقفهم ودعمهم واسنادهم للقوات المسلحة ليكون ذلك قوة إضافية لأبناء الجيش العراقي في الصمود والثبات، موضحا انهم -أي القيادات السياسية- أمام مسؤولية تاريخية ووطنية وشرعية كبيرة»[٢٠].

٢-الفساد (corruption).

ابرز سمة يمكن ان يتصف بها النظام السياسي العراقي بعد ٢٠٠٣ الى يومنا هذا هو الفساد الذي لم يبقي ولا يذر، فلا تكاد مؤسسة من مؤسسات الدولة تخلو من هذا المرض الفتاك؛ حتى اصبح الفساد ظاهرة سائدة لا تخجل صاحبها ان اتهم بها!. وهذا بدوره انعكس سلبا على جميع مفاصل الدولة وتقدم البلد. وشكل تحديا كبيرا لدى المواطن اتجاه النظام السياسي الذي يدير الدولة. وسأذكر بعضاً من مظاهر الفساد في

مدينة الموصل التي سبقت سقوطها. فرضتْ نسبة محددة من «الإتاوات» على المشاريع الحكومية التي تنفذ في محافظة نينوى، وتلك النسبة كانت معروفة بـ١٠٪ من قيمة المشروع وفرض٥٪ للمشاريع التأهيلية. بحيث أصبح هذا الأمر عرفًا مُشاعًا وسائدًا وبعلم الحكومة المحلية والجهات الأمنية والاستخباراتية !. وبحسب التقارير واعترافات المسؤولين المحليين كان تنظيم «داعش» تحصل على تمويل مالي من خلال نظام الجباية ما يعادل ٥,٠٠٠٠,٠٠٠ مليون دولار شهريًا من محافظة نينوى وحدها ثم بعد ذلك تضاعف الرقم إلى ١١,٠٠٠,٠٠٠ مليون دولار شهريًا قبيل سقوط الموصل!. وكذلك كان التنظيم يحصل على ١,٠٠٠,٠٠٠ من متعهد نقل المشتقات النفطية من مصفى بيجي إلى نينوى!، وكذلك وجود ٣٠٠ عقد وهمي من «الفضائيين» في بلدية الموصل وكانت رواتبهم تدفع مباشرة لتنظيم الدولة ما يعادل ٧٥,٠٠٠,٠٠٠ مليون دينار شهريًا،! وكذلك كان للتنظيم واردات مالية من سوق الفواكه والخضرة والمعروف بالموصل «سوق المعاش» ما يعادل ٢٠٠,٠٠٠ ألف دولار شهريًا. والغريب بان قائد عمليات نينوى الفريق «مهدي الغراوي» يعلم جيدًا بمسألة الإتاوات وله حصة ثابتة في ساحات «كراجات» السيارات؛ لأن الواردات كانت تقسم على ثلاثة أقسام: ثلث لقائد العمليات، وثلث للإرهابيين، وثلث لمالك الساحة![٢١]. هذا كمثال والامر اكبر من ان يذكر هنا.

رابعاً: التَّحدي الإجرامي (criminal chal-lenge).

ما من جريمة ترتكب الا تركت اثرا على ذوي المجني عليه بصورة خاصة وعلى المجتمع بصورة عامة، وهذه الاثار قد تكون نفسية كالقلق والخوف او اجتماعية كتفكيك الاسرة وتسيب العائلة او دينية كالشك في الدين نفسه والارتداد عنه، وغيرها من الاثار. كما تعطي انطباعا عن صورة الجاني ومدى اتصافه بالوحشية وخروجه عن طور الانسانية، وهذه الصور تتعلق بتعاظم الجريمة كلما عظمت الجريمة كلما شنعت صورة الجاني وازدادت الاثار.

ولا يختلف أثنان على وحشية الجرائم التِّي أرتكبها التنظيم الإرهابي «داعش» في العراق، فكانت في منتهى القسوة والاسراف. فقد خرج الإرهابيون عن كل القيم العرفية والعادات المجتمعية والتقاليد العشائرية. ويعرف هذا السلوك في علم الاجتماع بالسلوك الإجرامي وهو: خروج أفراد المجتمع عن السياق العام للعادات والتقاليد والأعراف والقواعد الاجتماعية والقوانين السائدة في هذا المجتمع[٢٢]. وهذا السلوك هو المنطلق الاساسي الذي انطلق منه الإرهابيون في تعامل مع الاخر. فشعارهم «جئناكم بالذبح» فكانوا يروجون له بشتى الطرق لترك

الاثـار النفسـية والاجتماعيـة والدينيـة في نفـوس الاخريـن. وهـذا النـوع مـن السـلوك الإجرامـي شـكل تحديـا كبـيرا وصـورة سـوداوية في نفـوس الكثـير مـن الشـعب بـل العـالم. والخـص هـذا التَّحـدي الاجرامـي في امريـن هـما:

١- **كميـة الجريمـة (amount of crime).**

اعتمـد الارهابيـون سـلوكا قـذرا في افشـاء الجريمـة لـزرع الذعـر عنـد المواطنـين، في قتل اكـبر عـدد ممكـن سـواء مـن العسـكرين او المدنيـين، وسـأذكر بعضـاً مـما قامـوا بـه مـن جرائـم بالأرقـام الموثقـة في تقاريـر الامـم المتحـدة، ومفوضيـة حقـوق الانسـان[٢٣].

- إعـدام ٦٠٠ نزيـلاً مـن سـجناء «بـادوش» في الموصـل بتاريـخ: ١٠ حزيـران ٢٠١٤.
- إعـدام اكـثر مـن ٢٠٠٠ طالبـا مـن معسـكر قاعـدة «سـبايكر» في صـلاح الديـن. بتاريـخ ١٢ حزيـران.
- إعـدام قرابـة ٤٠٠ رجـل مـن الأيزيديـين عنـد أطـراف قريـة «كوجـو» جنـوب مدينـة سـنجار في محافظـة نينـوى بتاريـخ ١٥ آب.
- اختطـاف ١٥٠ شـخصا مـن مدينـي القـيروان والبعـاج في اواخـر شـهر ايلـول.
- في ٢٠ تشريـن الأول أعلنـت وزارة الدَّفـاع العراقـي العثـور عـلى مقـبرة جماعيـة عمرهـا ثلاثـة أشـهر قـرب الفلوجـة في محافظـة الأنبـار، تحـوي رفـات ١٩ مدنيـا اعدمـوا مـن قبـل «داعـش». كل القتـلى تراوحـت أعمارهـم بـين ١٧ الى ١٨ سـنة.
- اعـدام ٤٠٠ شـخص مـن عشـيرة «البونمـر» في الأنبـار بتاريـخ ٣ تشريـن الثـاني.
- في ٣ كانـون الأول عـثر السـكان المحليـون عـلى مقـبرة جماعيـة ضمّـت ٤٠ جثـة لأفـراد تعرضـوا لإطـلاق نـار في الـرأس، في القيـارة جنـوب الموصـل.
- اختطـاف ٥٠ مدنيـا مـن قريـة «خانـوكا» في الموصـل بتاريـخ ٦ كانـون الاول.
- في يـوم ٧ كانـون الأول في قريتـي «عذبـة» و«هليلـة» جنـوب الموصـل. عـثر عـلى المقبرتـين تضـمّان رفـاة المئـات مـن الضحايـا المدنيـين والمنتسـبين للقـوات الأمنيـة أعدمـوا في شـهر حزيـران.

٢- **نوعية الجريمة (crime quality).**

اعتمـد الارهابيـون أسـلوباً آخـراً أكـثر رواجـاً والتأثـير بالـراي العـام، وذلـك الجريمـة بحـق النخـب المجتمعيـة، لغـرض التسـويق الاعلامـي للحـدث، أذكـر بعـض مـا قامـوا بـه:

- إعـدام التنظيـم امرأتـان في الموصـل، في ٩ أيلـول ٢٠١٤ بـدون توفـر المعلومـات.
- إعـدام محاميـة وناشـطة في حقـوق الإنسـان معروفـة في ٢٢ أيلـول أمـام مبنـى مقـر المحافظـة السـابق في منطقـة الدَّواسـة في الموصـل.
- إعـدام علنـا نائـب المدعـي العـام لمحكمـة اسـتئناف الموصـل، في ١ تشريـن الأول.

- إعدام مصور وثلاثة من أقاربه جنوب تكريت يوم ١١ تشرين الأول في سامراء.
- إعدام ثلاث من زعماء قبيلة «الجبور» في ٣٠ تشرين الاول في الموصل، أمام مبنى محافظة نينوى في مدينة الموصل.
- إعدام ضابط شرطة عند المدخل الجنوبي لمدينة الفلوجة في يوم ١٣ تشرين الثاني، ثم تعليق جثته على الجسر الأردني ليمنع إنزالها.
- اختطاف ٢٧ زعيما عشائرياً من قبائل الحمدان والبوفراج والحديدي والجحيش بتاريخ ١٤ تشرين الثاني في الموصل.
- اختطاف استاذان جامعيان في الموصل في ١٥ تشرين الثاني وتم اعدامهما.
- اعدام ١٦ طبيباً في نينوى بعد اعتقالهم بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني.

المبحث الثاني: الاستجابة في فتوى الدَّفاع المقدس.

بعد بيان التَّحديات الأربعة بفروعها الثَّمانية التي سبقت ورافقت اعلان الفتوى المباركة، ثمة استجابة تلاءمت بل فاقت التَّحديات المذكورة، مما شكلت هذه الاستجابة عاملا للنجاح وتتغلب على التَّحديات التي هددت البلد من الدَّاخل والخارج، كما انها اسهمت في بناء وتاريخ حضارة العراق وكذلك بينت مدى عراقة هذا الشعب في سرعة استجابته وتمسكه بارضه وانغراسه في عقيدته وحجم تضحيته التي اذهلت العالم باسره. ولو لم يتمكن شعب العراقي من مواجهة هذا التَّحدي -لا سامح الله- فانه يقد قيمته وهيبته وحضارته وآل امره الى الفناء والزوال. وفي الحقيقة هذا ما أراده الفيلسوف «ارنولد توينبي» من نظريته «التَّحدي والاستجابة» في تفسير مجريات التاريخ واحداثه.

وهنا لابد من ايضاح امرا هو ان الفتوى المباركة هي الفيصل بين التَّحدي والاستجابة، والعلامة الفارقة بين الزمن وسرعته وبين الهزيمة والمواجهة وبين الباطل وانتصار الحق، وعليه اعلان الفتوى بمثابة اعلان الاستجابة لتلك التَّحديات التي حلت بالعراق. ومما لاريب فيه ان اصدار الفتوى لم يكن اتفاقا او ردة فعل بل اعلانها كان وفق معطيات وقراءة دقيقة للواقع واستشراف المستقبل الغرض. وفعلا كانت استجابة تناسبت مع التَّحديات ضمنت نجاح حضارة العراق وحافظت على تاريخه. الرسم البياني يلخص نظرية التَّحدي والاستجابة في فتوى الدَّفاع المقدس.

أولاً: استجابة السَّرعة (speed response).

أجزم ان أسرع استجابة شهدها التاريخ الحديث والمعاصر لتحد بحجم التَّحدي الذي مر به العراق هي استجابة الجماهير لفتوى المرجعية العليا، والاستجابة تكمن في التَّحدي الذي سبق الاستجابة. فقد

راهن الارهابيون على اغتنام الوقت في بسط نفوذهم الا ان الاستجابة كانت اسرع بكثير مما كان يتصور هؤلاء. فقد اعلن الدفاع في الخطبة الثانية من صلاة الجمعة يوم ١٣ حزيران. استجابت الجماهير على فورهم، فلم يفصلهم الا اداء الصلاة عن الاستجابة، فتحشدت الالاف من المواطنين في كربلاء يطالبون بالالتحاق للجبهات العسكرية.

فلم يختصر الامر في كربلاء فحسب شملت بغداد وبقية المحافظات فقد رأيت بعيني سيولا من الشباب والشيوخ من العشائر العراقية في مدنية «الناصرية» حاملين اسلحتهم الشخصية ومرتدين ملابسهم المدنية يركضون صوب المراكز الحكومية حتى ضاقت بهم الطرقات وشحت وسائل النقل عن حملهم. مرددين هتاف «تاج تاج على الراس سيد علي السيستاني». وبهذه الروح الحماسية والاستجابة السريعة التي اذهلت العالم باسره، وفاقت كل التصورات والحسابات بلغ عدد المتطوعين اكثر من ثلاثة ملايين متطوعا حتى ان الحكومة عجزت عن استيعاب هذا العدد الهائل واكتفت بالعدد الذي يسمح به الميدان العسكري والحاجة لهم.

وفي الحقيقة ان الفتوى لم تكن قد زرعت الحماسة في نفوس المواطنين فحسب بل كانت عاملا اساسيا في نفوس القطعات العسكرية قبل ان يلتحق المواطنين معهم، فقد روى قائد القوات البرية الفريق الركن قاسم المحمدي، اللحظات التي سبقت انطلاق فتوى الجهاد الكفائي ووقع صدورها وتلقيها من قبل المقاتلين في القوات المسلحة وهم في الميدان، قائلاً: «كنت قائداً للفرقة السابعة ،وكانت القطعات موجودة في منطقة حديثة والبغدادي وهيت، وكان هناك تنقل في قطعات أخرى، لكن فور صدور توقيت الفتوى ارتفعت معنويات الصمود للمقاتلين الموجودين في تلك الأيام العصيبة»[٢٤].

وقال نائب قائد العمليات المشتركة الفريق أول الركن عبد الأمير الشمري، وأضاف أن «مئات الآلاف من المتطوعين انخرطوا في صفوف القوات المسلحة في الأيام الأولى تلبية لنداء المرجعية العليا وكان يومياً لا يقل عن ٥ آلاف متطوع يتم استقبالهم فقط في مدرسة قتال قيادة عمليات بغداد».[٢٥]

ثانيا: استجابة الوَّطن (home response).

استجابة الوطن هي مواجهة التَّحدي الديني الذي انطلق منه الارهابيون في سيطرتهم على المدن العراقية. والمنهج الذي تعاملوا به مع الاخر. وهو منهج الاقصاء والاستئصال وفق الرؤية الدينية المتشددة التي لا تقبل الاخر مهما كان سوى الذي يؤمن بدين الارهاب والاقصاء. فجاءت استجابة الوطن وفق هذا التَّحدي الخطر، فلم تميز الفتوى بين دين ودين

او طائفة وطائفة او مذهب على حساب مذهب اخر. وهذا ما اكده الشيخ عبد المهدي الكربلائي في خطبة اعلان الدفاع الكفائي قائلا: «اجعلوا قصدكم ونيتكم ودافعكم هو الدَّفاع عن حرمات العراق ووحدته وحفظ الأمن للمواطنين وصيانة المقدسات من الهتك ودفع الشر عن هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح»[٢٦].

فالذين استجابوا لنداء المرجعية قد انطلقوا من مبدا حب الوطن والدفاع عن الاخر بصرف النظر عن دينه ومعتقده، وهذا ما شهد به الاخر نفسه. فقد صرح امير الايزيدية في العراق والعالم تحسين سعيد بك قائلا: « باسمي وباسم المجلس الروحاني الايزيدي أعبر عن خالص امتناني وتقديري العميقين لقوات الحشد الشعبي العراقي الذين سطروا أروع الملاحم البطولية في كل بقعة من ارض العراق واستطاعوا ان يعيدوا المجد والهيبة للدولة العراقية وانتصروا على ارهابيي تنظيم داعش في كل مكان»[٢٧] واضاف ايضا: «في هذه الابادة التي ارتكبتها تنظيم داعش الارهابي بحقنا كأيزيديين موقف الاخوة في جنوب العراق كان مشرفا وخاصة الاخوة الشيعة حيث ان استشهاد ابن البصرة الطيار ماجد التميمي على جبل سنجار والفتوى التاريخية التي أصدرتها اية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله) بتحريم الدَّم الايزيدي سوف تبقى كشواهد تاريخية عالقة في اذهاننا ومواقفهم لا تنسى»[٢٨].

فكانت استجابة الوطن كاسرة للتحدي الديني المتشدد الذي اعتمده الارهابيون لزرع الخوف والقلق في نفوس الاخرين. فكانت استجابة اكبر واشد منه.

ثالثا: استجابة العقيدة (Faith response).

جاءت الاستجابة العقائدية للواقع السياسي الانهزامي الذي شهده البلد ابان احتلال الارهاب اراضي العراق. وهنا اقصد من العقيدة هي التمسك بالمبدأ والاصرار على الموقف والمضي في التقدم، فليس المقصود الايدلوجية المذهبية التي تلغي الاخر وتقصيه؛ كلا. فالسياسية غاليا تجرد اصحابها عن المبدأ والثبات والاصرار.

وهذا ما حدث قبيل سقوط الموصل مما شكلت تحديا كبيرا للشعب في مواجهة «داعش» فقابلتها استجابة عقدية ملؤها الايمان بالقضية واحقيتها، لذلك نرى بانهم سطروا اروع الصور الانسانية والاخلاقية والجهادية في سبيل هذا الطريق. كيف لا فهم على دراية تامة ومعرفة كاملة بانهم يسيرون الى الجنة لا محال. والذي غرس هذه العقيدة في نفوسهم هذه العقيدة وجلاها في بصائرهم هي الفتوى المباركة، حيث صرح الشيخ عبد المهدي الكربلائي قائلا: وفي الوقت الذي تؤكد فيه المرجعية الدينية العليا دعمها واسنادها لكم فأنها تحثكم على التحلي بالشجاعة والبسالة والثبات والصبر وتؤكد على إن

من يضحي بنفسه منكم في سبيل الدَّفاع عن بلده وأهله وأعراضهم فإنه يكون شهيداً إن شاء الله تعالى»[٢٩].

وقد تميز المستجيبون لنداء الفتوى المقدسة بهذه السمة العقائدية، فقد افاد الخبير الأمني والسياسي، العميد عدنان الكناني قائلا: «فيما كان الجيش العراقي يمتلك الطائرات السمتية والمقاتلة والدروع والآليات وحاملة الأشخاص والآليات ،ويمتلك مواقع دفاعية وأسلحة متوسطة وخفيفة وفوق الخفيفة وحتى الثقيلة، لكنه انهار وانهارت معنوياته وأصبح في وضع لا يحسد عليه، ويحتاج لأمر حتى يعيد نشاطه ويعود إلى وضعه الطبيعي، فجاءت فتوة المرجعية الدينية، وهبت قوات عقائدية مستجيبة لفتوى المرجعية وقاتلت عصابات داعش الإرهابية بأسلوب عقائدي»[٣٠]

وتابع أن «فتوى المرجعية استجاب لها بحدود ٣ ملايين عراقي من طفل عمره ١٤ سنة إلى شيبة عمرها ٦٠ سنة، وبالتالي أعادت هذه الفتوى نشاط القوات المسلحة العراقية وامتزجت الدَّماء بين المقاتلين وتحقق النصر بفضل القيادة الدِّينية العقائدية»[٣١].

رابعاً: استجابة التضحية (sacrifice re-sponse).

رغم السلوك الاجرامي الذي انتهجه «داعش» في ارهاب الناس وتخويفهم، الذي شكل تحديا كبيرا لدى المواطنين بيد ان الاستجابة التي لاقته اذابت كل صوره الاجرامية، واثبتت للعالم أجمع بان هؤلاء المستجيبون مشروع التضحية ولا يبتغون سواها بدلاً. يقدمون الى الموت وهم مستأنسون كأنّهم يزفون الى حلائلهم. وصور التضحية لا يمكن ذكرها في هذا المقتضب لسعتها وكثرتها، فاجزم قولاً ان كل مستجيب من الذين لبوا نداء المرجعية يمتلك صوراً متعددة من معاني التضحية. واكتفي هنا بذكر صورة واحدة من تلك الصور المشرقة صورة اخي الشهيد «علي».

«علي» ابن اثنين وعشرين ربيعاً متزوج يسكن في مدينة «الدواية» شمال محافظة ذي قار. استجاب لنداء المرجعية العليا في اول اعلان الفتوى المقدسة والتحق بصفوف المقاتلين، فكان ملؤه الحماس والجهاد يمني نفسه بالشهادة ويطلبها. خاض كثيراً من المعارك في كركوك وتكريت والانبار ولكن دون ان يظفر بما طلبه. اصيب بذراعه الايمن عام ٢٠١٧ في «تلال حمرين» بقي في مقره العسكري لأكثر من شهرين فلم يذهب الى اهله بغية ان لا يروه جريحا فيحيلون بينه وبين الرجوع مرة اخرى. كان يتواصل معهم بالاتصال ويسوف مجيئه ويعتذر لهم بسبب الانذارات المستمرة الى ان تشافت اصابته فعاد الى اهله فتفاجؤوا بانه جريح.

استمر «علي» بمواصلة قتاله في الجبهات

وعند انتهاء كل معركة بالتحرير؛ كان يكرر هذه العبارة ويكتبها بصفحته في الفيسبوك «المجاهد الحقيقي عندما تنتهي الحرب يبقى متحسرا قائلا خسرنا وفازوا الشَّهداء». إلى أنْ تم إعلان النَّصر عام ٢٠١٧، بقيَّ في نفسه غصة بأنه خسر الشَّهادة. وفي صبيحة يوم ٢٦ تموز ٢٠١٨ في القائم غرب الأنبار تعرضوا إلى هجوم من «داعش» فحقق الله أمنيته المطلوبة. أستشهد بعمره ٢٦ سنة مخلفاً وراءه امة ثكلى وزوجة مفجوعة وثلاثة اطفال «فاطمة» عمرها ثلاث سنوات و«معصومة» عمرها سنتين» و«حسين» عمره ستة اشهر.

ما أقوله: «علي» كل علاقته ومعرفته لمدينة القائم هي رؤيته لها على خارطة العراق عندما كان طالباً في المدرسة، فلم يملك فيها أرضاً او داراً ليدافع عنها، قصدها باختياره وضحى بأغلى ما يملك، فلم يأبه بكل ما سمعه وراه من جرائم الإرهاب. هذه الاستجابة التي يتملكها الآلاف امثال «علي» ذلت امامهم كل السَّلوك الاجرامي.

النتائج

بين التَّحديات الخطرة والاستجابة الكاسرة، ثمة نتائج أختم فيها البحث، ابرَّزها في نقاط هي:

١-إنَّ فلسفة التَّاريخ هي ضرب من ضروب المعرفة، فهي ليست التاريخ نفسه، كما هي ليست فلسفة مجردة، امتزج السَّؤال بالحدث، والتَّحليل بالمجرى، والسَّبب في التَّدوين، هي تبحث عن القوانين المسيطرة على نمو المجتمعات الانسانية وتطورها، وما يحدث لها، وما يطرأ عليها من تغيرات وتقلبات.

٢- جاءت نظرية «التَّحدي والاستجابة» التي طرحها الفيلسوف ارنولد توينبي كأفضل نظرية فسرت مجريات التاريخ وبناء الحضارات وهدمها، فهي نظرية منسجمة مع المنهج العقلي بل هي تتلاءم مع الفكر الاسلامي الذي طرحه الله تعالى في بناء الانسان كأحد الرَّكائز الأساسية الحضارة . فهو لا يخلو من التَّحدي والاستجابة، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}** [الأعراف : ٢٠١]. فهنا الانسان يعيش حالة من التَّحدي وهو مس الشيطان والاستجابة ذكر الله والنتيجة الأبصار.

٣- اختزلت التَّحديات في فتوى الدفاع الى اربعة ثم فرَّعتها الى ثمانية، وفي حقيقة الامر هي اكثر من هذا العدد ولكن ركزت على اهمها بما يتناسب مع الدراسة الموجزة، ثم ان اختزلت الحديث عن هذه التَّحديات الاربعة للسبب ذاته، وعليه هي دعوة لكل الباحثين بان تدرس هذه التَّحديات بدراسة تفصيلية تتناسب مع حجمها وخطرها وتبين مدى الاستجابة التي قوبلت بها، وكذلك توثيق

المخرجات والنتائج التي ترتبت عليها.

٤- نشكر الله تعالى على نعمة المرجعية الدينية وارتباطنا بها، فهي من غيَّرتْ الاستراتيجية العالمية بأكملها، وافشلتْ المخططات التي اعدها كبار السِّياسيين والخبراء اقلها ان يعيش العراق بصراع وقتال لا نهاية له، وهذا ما صرحت به الدَّول الاستكبارية بان الارهاب سيبقى في العراق لسنوات طويلة، لكن بوجود المرجعية الدِّينية هي من اجهزت عليه وحُرر العراق بمدة لا يمكن يتصورها الاخر. وكان النصر مصداقا لقوله تعالى **{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** [هود : ٤٤].

الهوامش:

١- النجم، توينبي ونظرية التَّحدي والاستجابة: ص١٤.

٢- علم الدين، فلسفة التاريخ عند ارنولد توينبي: ص١٩.

٣- شبل، دراسة للتاريخ لارنولد توينبي: ص٥.

٤- المصدر نفسه، ص٦.

٥- طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٢٤٦.

٦- د. وسام طه، محاضرة منشورة على قناته الرسمية في اليوتيوب بعنوان: توينبي.

٧- النجار، فلسفة التاريخ: ص٣٣٧.

٨- توينبي، مختصر دراسة التاريخ: ج١، ص١٩.

٩- النشار، فلسفة التاريخ: ص٢٦٢.

١٠- المصدر، نفسه: ص٢٦١.

١١- النجار، فلسفة التاريخ: ص٣٣٩.

١٢- الحلي، شرائع الاسلام، ج١، ص٢٣٢.

١٣- الصدر، ما وراء الفقه: ج٢، ص٣٧٣.

١٤- الكربلائي، خطبة الجمعة، بتاريخ: ١٣ حزيران ٢٠١٤.

١٥- قناة (DW) الالمانية، بعنوان: البوندستاغ» يصنف جرائم «داعش» ضد الإيزيديين «إبادة جماعية»

١٦- مركز دراسات الشرق الاوسط، بلگاي دومان, ظلم داعش الذي لاينتهي: النساء التركمانيات المختطفات.

١٧- العربي، زيد سالم، عن ألف عراقية مختطفة لدى «داعش».

١٨- سمارة، النظام السياسي في الإِسْلاَم: ص١٤.

١٩- باس، نايف كركري، احتلال مدينة الموصل على يد إرهابيي «داعش» خفايا وأسرار وحقائق.

٢٠- الكربلائي، خطبة الجمعة، بتاريخ: ١٣ حزيران ٢٠١٤.

٢١- باس، نايف كركري، احتلال مدينة الموصل على يد إرهابيي «داعش» خفايا وأسرار وحقائق.
٢٢- الصحة العامة، سامي بلال، مقال بعنوان: السلوك الإجرامي في علم النفس وأسباب الجريمة.
٢٣- ينظر: تقرير حول حماية المدنيين في النزاع المسلح في العراق: ١١- ١٠ كانون الاول ٢٠١٤. الصادر من مكتب حقوق الإنسان في بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق.
٢٤- شبكة واع، قادة أمنيون يستذكرون فتوى الجهاد ودورها في تحقيق النصر على الإرهاب.
٢٥- شبكة واع، قادة أمنيون يستذكرون فتوى الجهاد ودورها في تحقيق النصر على الإرهاب.
٢٦- خطبة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤.
٢٧- قناة العالم، أمير الايزيدية يشكر الحشد ويدعو الشباب للانضمام لتشكيلاته.
٢٨- المصدر نفسه.
٢٩- خطبة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤.
٣٠- واع، قادة أمنيون يستذكرون فتوى الجهاد ودورها في تحقيق النصر على الإرهاب.
٣١- المصدر نفسه.

قائمة المصادر

خير ما نبتدأ به القران الكريم.

• قائمة الكتب:

١- توينبي، ارنولد، **مختصر دراسة التاريخ:** ترجمة: فؤاد محمد شبل: (المركز القومي- القاهرة)، ط١، ٢٠١١م.
٢- الحلي، أبو القاسم جعفر بن الحسن، **شرائع الاسلام في مسائل الحلال والحرام:** (استقلال- قم المقدسة)، ط٥، ١٤٢١هـ.
٣- سمارة، احسان: **النظام السياسي في الإِسْلاَم:** (دار يافا العلمية- الاردن)، ط١، ٢٠٠٠م.
٤- شبل، فؤاد محمد، **دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي:** (مكتبة الاسرة- القاهرة)، د.ط، د.س.
٥- الصدر، محمد: **ما وراء الفقه:** (اميران- قم المقدسة)، ط١، ٢٠٠٥.
٦- طرابيشي، جورج، **معجم الفلاسفة:** (دار الطليعة- بيروت)، ط٣، ٢٠٠٦.
٧- علم الدين، نيفين جمعة، **فلسفة التاريخ عند ارنولد توينبي:** (الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة)، ط١، ١٩٩١.
٨- النجار، جميل، **فلسفة التاريخ:** (المكتبة العصرية- بغداد)، ط١، ٢٠٠٧.
٩- النجم، زياد عبد الكريم، **توينبي ونظرية التَّحدي والاستجابة:** (الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق)، ط١، ٢٠١٠.
١٠- النشار، مصطفى، **فلسفة التاريخ:** (نيوبوك للنشر والتوزيع- القاهرة)، ط١، ٢٠١٧.

• المواقع الالكترونية:

١- باس، نايف كركري، احتلال مدينة الموصل على يد إرهابيي «داعش» خفايا وأسرار وحقائق.
٢- د. وسام طه، محاضرة منشورة على قناته الرسمية في اليوتيوب بعنوان: توينبي.

٣- شبكة واع، قادة أمنيون يستذكرون فتوى الجهاد ودورها في تحقيق النصر على الإرهاب.
٤- الصحة العامة، سامي بلال، مقال بعنوان: السلوك الإجرامي في علم النفس وأسباب الجريمة.
٥- العربي، زيد سالم، عن ألف عراقية مختطفة لدى «داعش»
٦- قناة (DW) الالمانية، بعنوان: البوندستاغ» يصنف جرائم «داعش» ضد الإيزيديين «إبادة جماعية»
٧- قناة العالم، أمير الايزيدية يشكر الحشد ويدعو الشباب للانضمام لتشكيلاته.
٨- مركز دراسات الشرق الاوسط، بلگاي دومان, ظلم داعش الذي لا ينتهي: النساء التركمانيات المختطفات.
٩- موقع سماحة اية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله).

• **الخطب والتقارير:**

١- خطبة الجمعة، الشيخ عبد المهدي الكربلائي. بتاريخ: ١٣ حزيران ٢٠١٤.
٢- تقرير حول حماية المدنيين في النزاع المسلح في العراق: ١١- ١٠ كانون الاول ٢٠١٤. الصادر من مكتب حقوق الإنسان في بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق.